الخصائص اللغوية في شعر مالك بن المرحل

د.رنا هادي الالوسي

The poetic specifications of Malik Bin Al Mirhel poetry

Ph.D. Rana Hadi Al Aloosy

They said that the poet is the son of his environment and Malik Bin Al Mirhel was not different of other poets, he influenced with the political and social events that he lived, he was with ability to use of the poetry methods and align them for the quotation and its quality, and show the expressive methods, without forgetting his deep religious influence where some of his poems had some important religious affairs.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين المبعوث بالحق المبين والنورالمستبين محمد الرحمة المهداة وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.

فإن الحديث عن مالك بن المرحل وشعره، مرتبط بجهود هذا الشاعر الأدبية والدينية كونه من الأدباء الذين خدموا الدين، فضلاً عن كونه من شعراء مدينة قصية تقبع في غرب العالم العربي، وهي مدينة سبتة السليبة التي تقبع تحت الاحتلال الأسباني، وأن في إعادة أمجاد هذا الشاعر تذكير بمآثره، وبمدينته، وقد برز بشاعريته الفذة التي شهد لها جميع النقاد، وبمؤلفاته وباختراعه الدوبيت.

وبحثي هذا الموسوم (الخصائص اللغوية في شعر مالك بن المرحل) قد جاء في دراسة جهوده وبعض الملامح اللغوية في شعره.

وقد اشتمل هذا البحث بعد هذه المقدمة الموجزة على ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: ترجمة مالك بن المرحل.

المبحث الثاني: ملامح اللغة الشعرية.

المبحث الثالث: الأساليب اللغوية.

وختمته بخاتمة بينت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها

المبحث الأول

ترجمة مالك بن المرحل

أولاً . اسمه ونسبه:

هو أبو الحكم مالك بن عبدالرحمن بن علي بن عبدالرحمن بن الفرج بن أزرق بن سعد بن سالم بن فرج، ابن المُرَحَل المصمودي(١).

والمصمودي: نسبة إلى مَصْمُوَدة: وهي أكبر مجموعة قبلية أمازيغية مغربية، وهم أكثر قبائل البربر، وأوفرهم عدداً، وأوسعهم شعوباً، وبلادهم أقاصي المغرب(٢).

ثانياً . ولادته:

ولد ـ رحمه الله تعالى . بمدنية مالقة(٣)، وعن ولادته يقول مالك بن المرحل:

ياسائلي عن مولدي كي أذكره..... ولدت يوم سبعة وعشرة
من المحرّم افتتاح أربع............ من بعد ستمائة مفسّرة(١)

---

(١) ينظر: ذيل مشتبه النسبة للذهبي، لأبي المعالي محمد بن رافع السلامي، (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٧٦م: ٢٤ ؛ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، (ت١٣٤٥هـ)، تحقيق: د. محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م: ٣/ ٩٩ ؛ ذكريات مشاهير رجال المغرب، عبداللهكنون، عني به: د. محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٣٠هـ. ٢٠١٠م:٢/٩٩٢.

(٢) ينظر: الأنساب، لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، (ت٥٦٢هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ط١، ١٣٨٢هـ. ١٩٦٢م: ١٢/٢٨٤.

(٣) مالقة: مدينة بالأندلس تقع عل شاطىء البحر. ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن عبد المنعم الحميري، (ت٩٠٠هـ)، طبع بعناية المستشرق: ليفي بروفنسال، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٧٥م : ٣/١٢٢١.

أي إنه ولد في ١٧ محرم عام ٦٠٤ هـ(٢).

ثالثاً . بعض أخباره وصفاته:

كان ابن المرحل أديب زمانه بالمغرب وإمام وقته، تحرف بصناعة التوثيق، وولي القضاء بجهات غرناطة، وسكنبسبتة(٣) طويلاً، وتنقل بينها وبين فاس. وجمع بين الفقه والأدب واللغة والشعر. كان ـ رحمه الله تعالى . سريع البديهة، حاد الذهن، عزيز النفس(٤).

رابعاً . مؤلفاته:

ترك ابن المرحل عدداً من المؤلفات أبرزها:

١. الجوالات من شعر مالك بن المرحل الأندلسي، طبع بتحقيق ودراسة: د. محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، ط١، ليبيا . ٢٠٠٤م.

---

(١) الإحاطةفيأخبار غرناطة، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني الملقب بـ(لسان الدين بن الخطيب)، (ت٧٧٦هـ)، دارالكتبالعلمية،بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ: ٢٤٧/٣.

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دارالغربالإسلامي، بيروت، ط١،٢٠٠٣ م: ٩٢٧/١٥.

(٣) سبتة: " وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على برّ البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البرّ والجزيرة ". معجم البلدان، لأبي عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، (ت٦٢٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م: ١٨٢/٣.

(٤) ينظر: الإحاطة: ٢٣٣/٣ ؛ تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، (ت١٩٥٦م)، نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، بلا تاريخ: ٢٣٣/١ ؛ رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت، لأبي الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المالقي السبتي، (ت٦٩٩هـ)، تحقيق وتقديم: هلال ناجي، مجلة المورد، المجلد الثالث، العدد الرابع، ١٩٧٤م: ١٤٧.

٢. الرمي بالحصى والضرب بالعصا، وهو في النحو(١).

٣. عروض الدوبيت، حققه الأستاذ هلال ناجي، ونشره في مجلة المورد.

٤. نظم الفصيح: ألف مالك بن المرحل في كثير من فنون المعرفة، غير أن أكثرمصنفاته ضائعة إلى اليوم، وهو مطبوع باسم (نظم الفصيح) وهي أرجوزة نظم فيها فصيح ثعلب وشرحه سماها الموطأة، طبعت في المغرب بالمطبعة الفاسية ضمن مجموع المتون العلمية.

خامساً . وفاته:

توفي ـ رحمه الله تعالى ـ في السابع عشرمن رجب سنة(٦٩٩هـ) عن خمس وتسعين سنة، بمدينة فاس(٢).

المبحث الثاني

ملامح اللغة الشعرية

يمكن الوقوف على ملامح اللغة الشعرية عند مالك بن المرحل بما يأتي:

١ . ابتعاده عن الحوشي والغريب:

اتصفت اللغة الشعرية عند ابن المرحل بابتعادها عن الحوشي والغريب غالباً، فكانت لغته الشعرية سهلة سلسة مع فصاحتها، ومن ذلك أنه نبه في وصية له على أن دوام الحال من المحال، وأن على العاقل أن لا

---

(١) ينظر: معجمأعلامشعراءالمدحالنبوي، محمدأحمددرنيقة، تقديم: ياسينالأيوبي، دارومكتبةالهلال، مصر، ط١، ٢٠٠٣م: ٣٢٠ ؛ رسالتان فريدتان: ١٤٦.

(٢) ينظر: أعيان العصر وأعوان النصر، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: الدكتورعلي أبو زيد،الدكتور نبيل أبوعشمة،الدكتورمحمد موعد،الدكتور محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبدالقادرالمبارك، دارالفكرالمعاصر، بيروت . لبنان، دارالفكر، دمشق . سوريا، ط١، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م: ١٨٧/٤ ؛ الإحاطة: ٢٧٤/٣: ١٨٨/٤ ؛ رسالتان فريدتان: ١٤٦.

يغتر باللوامع وعليه أن يعي علة وجوده في هذه الحياة،وأن ليس للهو والعبث فيها محل ولا مكان،ويعدّ البخيل من ناداه الحبيب ولم يلب دعوته.

بِدايةُ حال أن تدُمْ فلعلَّما   ورُبَّ طلوع كان بعد مَغِيبِ
بَنِي الدَّهر أمَّا الدهرُ فهْو عدُوكم   وإن لاحَ يوماً في ثيابِ حبيبِ
بَوارِقُه لا رِيَّ فيها لعطشٍ   ولا خِصْب في أَنْوائِهِ لجدِيبِ
بَلاكُمْ وأَبلاكُمْ تقلَّبُ صَرْفِه   فَيَا وّيْحَها من أَنْفُس وقلوب(١)

فهو ينبه أن الدهر يومان يوم لك يوم عليك، وأن على اللبيب أن لا يغتر بما يصاحب أيامه من زهو، فهو وإن لاح بثياب حبيب لكنه قد يكون عدوا عند الإفراط في الأوقات في غير ما سخر له الإنسان من فعل الخير والطاعة لخالقه.

وقال ابن المرحل يحذر فيه من أن يجهل المرء قدر نفسه وأن يغمط حقوقها لاسيما مع من لا يعطي للآخرين حقهم:

لا تعجبوا للمرء يجهل قدره   أبدا ويعرف غيره فيصبر
فالعين تبصر غيرها مع بعده   لكنّ بؤبو نفسها لا تبصر(٢)

وقال ابن المرحل في التحذير من طباع بعض المتعلمين الذين لا يتحلون بآداب المتعلم:

أرى المتعلّمين عليك أعدا   إذا أعلمتهم من كلّ عاد
فما عند الصّغير سوى عقوق   ولا عند الكبير سوى عناد(٣)

وقال ابن المرحل في موقف الناس من ذوي الجاه، ويبين أن مواقفهم تتأثر قرباً أو بعداً بمدى النفع المتحقق لهم، ويبدو أن هذا ديدن الناس في كل

---

(١) النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون. دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٣٩٥هـ .١٩٧٥م: ٣/ ٨٤٦.

(٢) الإحاطة: ٣/ ٢٤١.

(٣) الإحاطة: ٣/ ٢٤١.

زمان ومكان:

يضع الناس صاحب الجاه فيهم   كل يوم في كفّة الميزان
إن رأوه يوما ترجّح وزنا   ضاعفوا البرّ فهو ذو رجحان
أو رأوا منه نقص حبّة وزن   ما كسوه في حبّة الجلجلان (١)

وقال مالك بن المرحل:

أرى الكلاب بشتم الناس قد ظلمت   والكلب أحفظ مخلوق لإحسان
فإن غضبت على شخص لتشتمه   فقل له: أنت إنسان ابن إنسان(٢)

فالشاعر يجري مقارنة بين الكلب والإنسان ، يتوصل منها إلى أن الكلب أحفظ للإحسان، وأوفى لصاحبه من الإنسان، وإن كان من حاجة للنقد فالإنسان هو من يستحق ذلك، وهذا يعبر عن تجربة مريرة عاشها الشاعر تركت أثرها المؤلم في نفسه.

فهذه الشواهد تبين تجنب ابن المرحل للغريب واعتماده على اللغة السهلة البسيطة.

٢ . الموروث الديني:

افاد ابن المرحل من الموروث الديني فائدة كبيرة، ولاسيما أن حصة القصائد الدينية في شعره كانت كبيرة، من قصائد المديح النبوي لمالك بن المرحل، وهي من غرر القصائد، وفيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم يجعلها بدءاً ورويّاً على اصطلاح المغرب، مدح فيها خير البرية رسول الله . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . المخمسة التي جاء فيها:

أجلّ الأنبياء نبيء   بضيائه شمس النّهار تضيء

---

(١) الإحاطة: ٣/ ٢٤١. والجلجلان: السمسم. الشيباني: أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (ت٢٠٦هـ). كتاب الجيم، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، مراجعة: عبد الحميد حسن، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر . ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م: ١/١٢١.

(٢) الإحاطة: ٣/١٧٧.

وبه يؤمّل محسن ومسيء   فضلاً من الله العظيم عظيماً
صلّوا عليه وسلّموا تسليما
بدا في أفق مكّة كوكبا   ثمّ اعتلى فجلا سناه الغيهبا
حتى أنار الدهر منه وأخصبا   إذكا نفيض الخير منه عميما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما(١)

ولمالك بن المرحل في مدح نعل النبي . صلى الله عليه وسلم . ويعرف هذا النوع من الشعر بالنعليات:

مثال لنعلي من أحب حديثه   فها أنا في يومي وليلي لاثمه
أجر على رأسي ووجهي أديمه   والثمه طوراً وطوراً الازمه
أمثله في رجل أكرم من مشي   فتبصره عيني وما أنا حالمه
أحرك من خدي أحسب رفعه   على وجنتي خطوا هناك يداومه(٢)

فالنعل صار باعثاً لتداعي الخواطر والأفكار، فالشاعر يمثله في رجلي الرسول.(صلى الله عليه وسلم) وهو يمشي به، حتى خيل له أن وقعه على خده حقيقة لا خيالاً.

" وليس تكريم تمثال النعل وتعزيزه، وليس تفخيم القبر وتلذذ التعبق بترابه، والالتصاق بأحجاره إلا تعبيراً عن تقديس صاحب النعل والقبر وإكبارا له وتفخيماً لمبادئه وأفكاره(١).

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، (ت١٠٤١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دارصادر ،بيروتلبنان، ١٩٩٧م: ٧/ ٤٥٣ ؛ مالك بن المرحل أديب العدوتين، محمد مسعود جبران، المجمع الثقافي، أبو ظبي،٢٠٠٢م : ٣٥٤.

(٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقري، (ت١٠٤١هـ) طبعت تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربي المتحدة،١٩٧٨ . ١٩٧٩: ٣/٢٦٣.

وقال مالك بن المرحل:

شوق كما رفعت نار على علم		تشبّ بين فروع الضّال والسّلم
ألقّه بضلوعي وهو يحرقها		حتى براني برياً ليس بالقلم[٢]

يعلن الشاعر هنا عن شدة شوقه إلى الديار المقدسة، وأن شوقه أشهر من أن يخفى، فهو كالنار على العلم، وقد براه هذا الشوق كما يبرى القلم، بعد أن احرق ضلوعه، ويقول:

من يشتريني بالبشرى ويملكني		عبداً إذا نظرت عيني إلى الحرم[٣]

فهو يعلن استعداده أن يكون عبداً لمن يمكنه من رؤية الحرم الشريف، ويعرج على المدينة المنورة فيقول فيها:

يا أهل طيبة، طاب العيش عندكم		جاورتم خير مبعوث إلى الأمم
عاينتم جنّة الفردوس من كثب		في مهبط الوحي والآيات والحكم[٤]

ويغبطهم على ما فيه من نعيم، فقد جاوروا خير الورى . صلى الله عليه وسلم .، وعاينوا مهبط الوحي حيث كان يتنزل بالآيات والقرآن الكريم. وقد مرّ بنا في شعر مالك بن المرحل قوله في التوبة:

بداراً إلى هاذي الدموع فربّما		غسلتَ ذُنُوباً جمَّةَ بذنوبِ[٥]

وله أيضاً في التوبة:

جَديرٌ بأن يبكي على نفسه أسىً	

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد السعيد دارالرشيد للنشر،بغداد، ١٩٨٠م: ٢٧٧.

(٢) الإحاطة: ٣/ ٢٤٠.

(٣) الإحاطة: ٣/ ٢٤٠.

(٤) الإحاطة: ٣/ ٢٤٠ . ٢٤١.

(٥) النبوغ المغربي: ٣/ ٨٤٦.

	فتى كلّما تُرجى له توبةُ تُرجا
جبَانٌ عن التقوى جَريءٌ على الهوى	
	قريبٌ من المهوى بعيدٌ عن الملجا
جَرَى في مجالِ اللهوِ ملءَ عنانه	
	إلى الآن ما ألقى لجاماً ولا سرجا
جنى ما جنى واستسهل الأمر في الصبا	
	فلما نهاه الشيبُ عن فعله لجّا(١)

فالشاعر هنا يأسف على التسويف الذي يقع به الناس ولاسيما من هم في مقتبل العمر، بتأخير التوبة، ويصف من يجتنب التقوى بالجبن، وأن قباحة المعاصي التي يقع بها الفتى تكون أشد وقعاً عندما يلوح عارض الشيب ولا يتعظ فيلج في ضلاله.

ومن شعر مالك بن المرحل في الزهد يصف الدنيا بالغرور والكذب والزّور:

يا خاطب الدنيا، طلبت غرورا		وقبلت من تلك المحاسن زورا
دنياك إمّا فتنة أو محنة		وأراك في كلتيهما مقهورا
وأرى السنين تمرّ عنك سريعة		حتى لأحسبهنّ صرن شهورا
بينا تريك أهلّة في أفقها		أبصرتها في إثر ذاك بدورا (٢)

ونبَّه هنا على تعاقب الليل والنهار، وأن الأعمال الصالحات تتناوب مع الطالحات، وأن الفلاح في أن يأخذ الفتى مرقده وقد تحرر من ذنوبه لكي يكون مستعداً لملاقاة ربه ومواجهة القبر وما يليه.

وقال ابن المرحل محذراً ابن الأربعين من المماطلة والتسويف في

---

(١) النبوغ المغربي: ٣/ ٧٢٣.

(٢) الإحاطة: ٣/ ٢٣٨ - ٢٣٩.

التوبة، فهذه سنُّ الرشد الكامل للإنسان ولأن المرء قد أخذ حظه من الدنيا في السنين الماضية، فلم يعد يملك عذراً في عدم الإقبال على ربه بالتقوى.

وأشفى الوجد ما أبكى العيونا		وأشفى الدّمع ما نكأ الجفونا
فيا ابن الأربعين اركب سفينا		من التّقوى فقد عمّرت حينا
ونح إن كنت من أصحاب نوح		لكي تنجو نجاة الأربعينا
بدا للشّيب في فوديك رقم		فيا أهل الرّقيم، أتسمعونا؟
لأنتم أهل كهف قد ضربنا		على آذانهم فيه سنينا

وفي هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى: **چںٹٹ ڈ ڈۀۀ چ**(١). ثم قال:

رأيت الشّيب يجري في سواد		بياضا لا كعقل الكاتبينا
وقد يجري السّواد على بياض		فكان الحسن فيه مستبينا
فهذا العكس يؤذن بانعكاس		وقد أشعرتم لو تشعرونا

فالشاعر يحذر من التعلق بالدنيا على الرغم من التقدم بالعمر، وكأن الشيب لم يكن كافياً في النصح، فراح ينكر على النفس هذا التمادي، مبيناً ما للشيب من دلالة، ثم قال:

وآه ثم آه ثم آه		على نفسي أكرّرها مئينا
أخيّ سمعت هذا الوعظ أم لا		ألا يا ليتني في السامعينا
إذا ما الوعظ لم يورد بصدق		فلا خسر كخسر الواعظينا(٢)

فقد حذَّر من مواصلة التصابي، والانخداع بتوالي الايام، فالمرء لا يدري بأي لحظة يغادر الدنيا،إما إلى دار عز وإما إلى دار ذل، ويؤكد في خاتمة قصيدته على الصدق في الوعظ، فما صدر من القلب يدخل القلب.

٣ . العلاقات الاجتماعية:

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١.

(٢) الإحاطة: ٣/ ٢٣٩ . ٢٤٠.

كثيرة هي القصائد التي ترسم ملامح علاقاته الاجتماعية مع الآخرين، ومن ذلك قوله:

صحبت عمري ناسا من ذوي حسب		حازوا الثناء بموروث ومطبوع
فلم أجد فاضلا فيما صحبت سوى		محمد بن أبي العيش بن يربوع(١)

وقد تكون العلاقة سيئة كما هو الحال مع ابن أبي الربيع(٢)، إذ وقعت مناظرة بينه وبين مالك بن المرحل ونتج عنها مهاجاة بينهما مقذعة نال فيها ابن الربيع من ابن المرحل وصنف مؤلفا خاصا بمنعها، ورد عليه ابن المرحل بكتابه (رمي الحصى والضرب بالعصا)، ولذاقالمالك:

عاب قوم كان ماذا		ليت شعري لما هذا
وإذا عابوه جهلاً		دون علم كان ماذا(٣)

٤ . الأثر الديني والسياسي:

واكب الشعر مسيرة الأمة في عصورها المختلفة، تغنى بنصرها ومجد بطولاتها وأستنهض هممها وحرك مشاعرها، ونعى تخاذلها وقعودها عن جهاد العدو المتربص بها، وهكذا مضى هذا التيار الهادر حتى وصل مداه وبلغ رباه في الأندلس معوضاً فيه الشاعر إحساسه بالدونية في مجتمعه حين تسوء

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع، لعلي صدر الدين بن معصوم المدني المعروف بعلي خان بن ميرزاأحمد. (ت١١١٩هـ)، تحقيق: شاكر هادي شاكر، مطبعة الغري الحديث، النجف، ١٣٨٨هـ . ١٩٦٨م: ٣/ ٣٣٠ .

(٢) هو أبو الحسين عبيد الله بن أحمد الإشبيلي، تلقى عن الدباج والشلوبين ولم يكن في طلبة الشلوبين أنجب منه، ثم هاجر من إشبيلية بعد استيلاء الإفرنجة عليها إلى سبتة وتوطنها. مات سنة (٦٨٨هـ). ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا . لبنان، ١٩٦٤م: ٣١٩.

(٣) نفح الطيب: ٤/١٤٥.

الأحوال الاجتماعية وما يولد هذا الإحساس من صراع مرير(١).

وانعكست الظروف الاجتماعية الصعبة التي مر بها الأندلس والمغرب العربي ولاسيما في نهاية عصر الموحدين على نتاج الشعراء إذ خلقت الهزات الاقتصادية، والتدهور السياسي أصداء في نفس الشاعر دفعته للجزع تعبيراً عن عمق الصدمات النفسية التي عاناها الأندلسيون والمغاربة تجاه وضعهم الاجتماعي ورفض سلبي للواقع(٢).

ومن سور التفاعل الحي مع الواقع قصيدته الشهيرة:

اِسْتَنْصَرَ الدِّينُ بِكُمْ فَأَقْدِمُوا		وأَسْرِجُوا لِنَصْرِهِ وأَلْجِمُوا
لاَتُسْلِمُوا الإسْلاَمَ يا إِخْوانَنَا		فإِنَّهُ إِنْ تُسْلِمُوهُ يُسْلَمُ(٣)

فهي عبارات سهلة شائعة على الألسن لا نجد فيها كلمة غريبة، ولعل غرض القصيدة كان يستلزم هذا التبسيط، إذ كان يخاطب بقصيدته المسلمين في المغرب العربي لينصروا لإخوانهم في الأندلس.

وقوله:

شهد الإله، وأنت يا ارض اشهدي		إنا اجبنا صرخة المستنجد
لما دعا الداعي وردد معلنا		قمنا لنصرته ولم نتردد
نسري له بأسنة قد جردت		من عضبها والصبح لم يتجرد
لولا الأسنة والسنابك ما درى		أحد بسير خيولنا في الفرقد(٤)

---

(١) ينظر: النزعة الإنسانية في الشعر الأندلسي في عصرالطوائف، محمد عبدالرحمن محمود، رسالة ماجستير، الجامعةالإسلامية، بغداد، ٢٠٠٦م: ١٤٠.

(٢) ينظر: الشعر في عهد المرابطين: ٤٨.

(٣) الذخيرة السنية، في تاريخ الدولة المرينية، لعلي بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور، الرباط، ١٣٩٢هـ. ١٩٧٢م: ٩٨ ؛ النبوغ المغربي: ٢٨/٣.

(٤) السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي، (٧٠٣هـ). دار الثقافة، بيروت . بلا تاريخ: القسم الأول: ٣٣٤ – ٣٣٦.

فقد عبر هنا عن سرعة الاستجابة وسرية الحركة وهما من مقومات الحروب بوصف رائع، فقد سرت قوافل المدد قبل أن ينبلج الصبح، وقد تحوط الجيش بالكتمان، فلولا صوت سنابك الخيل ما شعر بهم أحد.

المبحث الثالث

الأساليب اللغوية

سأتناول في هذا المبحث بعض الأساليب اللغوية في شعر مالك بن المرحل:

أولا ـ الاستفهام:

من شواهد الاستفهام عند ابن المرحل قوله:

هل لي رسول في الريح فإن من		فارقته بعث النسيم رسولا
يا ليت شعري أنى قرَّ قراره		يا قلب ويك أما وجدت دليلا
إن لم يكن ذاك الوصال كعهدنا		نكلت عيني بالبكاء تنكيلا(١)

فقد وظف الشاعر الاستفهام ليثير الشجون، ويستذكر أيام الوصال ويأمل من الريح أن تحمل مشاعره، بعد أن أرسل محبوبه النسيم رسولاً إليه.

ثانياً ـ الشرط:

قال ابن المرحل:

لو يكون الحب وصلا كله		لم تكن غايته إلا الملل
أو يكون الحب هجرا كله		لم تكن غايته إلا الأجل
إنما الوصل كمثل الماء لا		يستطاب الماء إلا بالعلل(٢)

---

(١) الجوالات من شعر مالك بن المرحل الأندلسي ت٦٩٩هـ، تحقيق ودراسة: د. محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، ط١، ليبيا ـ ٢٠٠٤م: ١٤٧.

(٢) أنوارالربيع: ٣٥٤/٤.

البيتان الأولان قياس شرطي، والثالث قياس فقهي، فإنه قاس الوصل على الماء، فكما أن الماء لايستطاب إلا بعد العطش، فالوصل مثله لايستطاب إلا بعد الهجر.

ثالثاً ـ النداء:

يقول ابن المرحل:

ياراحلين ولي في قربهم أمل		لو أغنت الحالتان القول والعمل
سرتم فكان اشتياقي بعدكم مثلا		من دونه السائران الشعر والمثل(١)

فأسلوب النداء هنا من الأساليب التي يعتمدها الشاعر للتعبير عن انفعالاته، وأفكاره لما فيه من شجن، ودعوة حسية يظهر الشاعر من خلاله مشاعره، ويعرض أمنياته؛ فضلاً عن قدرته على جذب المتلقي إليه، فهو لايجهر بأدوات النداء إلا ليعبر عما يثير مشاعره ويخلق أفكاره التي ترتبط في الوقت نفسه بالمخاطب قرباً وبعداً في المكان أو المنزلة أو الذاتية الاجتماعية(٢).

رابعاً ـ الأمر:

من شواهده عند ابن المرحل ما قاله في وصف الطبيعة ومنابتها ورياضها، ويكثف الحضور اللوني في القصيدة محاولاً رسم صورة حسية في ذهن المتلقي، قال يصف نهراً:

والأرض قد ضربت بمرهف نهرها		صفحا وألقي في المكان فصاحا
فاسمع إلى غريبه في حصبائه		كالقين جر علي العلاة سلاحا

---

(١) المحاضرات والمحاورات، لجلال الدين أبي الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت٩١١هـ)، دارالغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ: ٢٧٧.

(٢) ينظر: جماليات الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م: ١٥٠.

إياك ويحك والمزاح بما به		أصلاً فتنعكس في المزاج الراحا(١)

وهذا من التشبيهات اللطيفة، فقد شبَّه سير النهر في الأرض بسيف ضرب صفحتها، ويصف حال الحصى فيه بالحداد الذي حمل السلاح على السندان طرقاً ليبين شدة تموج المياه وتسكرها على ضفافه، وجاء الأمر هنا للاستماع إلى صوت تكسر الماء على الضفاف، كما جاء الأمر بالتحذير من المزاح، لأنه قد يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه.

خامساً . التمني:

أكثر ابن المرحل من التمني واتخذه أداةللتشكيل الفني في شعره، والتعبير عن المعاني الدقيقة، لما للتمني من طاقة تأثيرية في النص الشعري وفي المتلقي، ومن ذلك قوله في النصح:

أخيّ سمعت هذا الوعظ أم لا ؟		ألا يا ليتني في السامعينا
إذا ما الوعظ لم يورد بصدق		فلا خسر كخسر الواعظينا (٢)

فهو بعد أن ينصح الآخرين ويقدم لهم خلاصة تجاربه، يتمنى أن يكون ممن يعمل بهذه النصيحة، فقد أثنى الله تعالى على من يسمع النصيحة ويعمل به، كما في قوله: **چﮩﮧ ﮨﮩچ**(٣)، فكيف إن كان ينصح ولا يعمل بما ينصح به **چۀ ۀ ﮦ ﮧ ﮨچ** (٤)؟

سادساً . التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير ضربان:

الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أُخر المقدَّم أو قُدَّم المؤخر لتغير المعنى.

---

(١)الجوالات: ١٤٨.

(٢) الإحاطة: ٣/٢٤٠.

(٣) سورة الزمر: من الآية ١٨.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٤٤.

والثاني ـ يختص بدرجة التقدم في الذكر، لاختصاصهِ بما يوجب له ذلك، ولو أُخَر لما تغير المعنى(١).

وهو من الأساليب المهمة في العربية على العموم، وفي الشعرعلى الخصوص، فهو يبين براعة الشاعر وقدرته على الصياغة، وإمكانية تحريك الألفاظ عن مواقعها المفترضة، من غير أن يشوب ذلك جمال الصياغة الشعرية بل يزيدها بلاغة وجمالاً، ولا يؤدي إلى لبس أو خلل في المعنى.

ومن شواهد التقديم والتأخير قول مالك بن المرحل:

أعدى عليَّ هواه خصم جفونه		ما لي به قبل ولا بفنونه(٢)

فقد قدم الجار والمجرور (عليَّ) والمفعول به (هواه) على الفاعل (خصم) في محاولة من الشاعر لإبراز وقع الهوى عليه، وما ألحقته لحاظ المحبوب من أثر جعلت منه صريعاً عاجزاً.

ويسلك المسلك نفسه في بيت آخر من القصيدة فيقول:

متمكّن في الحسن نون صدغه		فتبيّن التّمكين في تنوينه(٣)

فقدَّم الجار والمجرور (في الحسن) على الموصوف ليكشف عن جمال نون الصدغ، وأنه ليس كغيره، فحسنه الموصوف بالتمكن . التي كررها مرتين للتأكيد . أسهم مع الجفون في الإطاحة بلب الشاعر.

ويكرر هذا المنهج في بيت آخر ليبرّز شمائل محبوبه الحسنة، فيقول:

يثني عليه كلّ فعل سائر		كالمسك إذ يثني على دارينه(٤)

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الموصلي، (ت٦٣٧هـ). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ١٩٩٥م : ٢/٢٣٩.

(٢) الجوالات: ١٦٢ ؛ الإحاطة: ٣/٢٣٤.

(٣) الجوالات:١٦٢ ؛ الإحاطة: ٣/٢٣٤.

(٤) الجوالات:١٦٢ ؛ الإحاطة: ٣/ ٢٣٥.

ويقدم الفاعل على الفعل مرتين في بيت آخر:

جفــون غيـــري أصـــحت بعـــدما قطـــرت	
	وقلـب غيـري صـحا مـن بعـد مـا ثمـلا(١)

وبهــذا التقــديم والتــأخير تحققــت عنايــة الشــاعر فــي إظهــار المبالغــة فيوصــف الممــدوح وزاد مــن ذلــك تكــرار كلمــة (يثنــي)، فبدتخصــاله؛ واســتخدام صــيغة الفعــل المضــارع لبيــان التجــدد المتواصــل، وكأنهــا ســيل يفــيض فبــدت الصورة المرئية أكثراتساقاً بفعل التقديم.

سابعاً . الطباق:

هو أن يذكرالشيء وضده، كالليل والنهار والسواد والبياض(٢).

وشــبّه مالــك بــن المرحــل تغيــر حــال المســلمين فيهــا مــن الانتقــال مــن الجنــة إلــى جهنم، وهمــا أعظــم مــا يمكــن للإنسـان أن يتصـوره مــن نعـيم وضــده، فقال:

لَهْفًا على أنْدَلُسٍ مِنْ جَنَّةٍ..دَارَتْ بها مِنَ العِدَا جَهَنَّمُ (٣)

فالطباق هنا أبلغ في الموسيقى وأجمل في الاستخدام.

ويطــابق مالــك بــن المرحــل، بــين الطــب والــدواء، وبــين وقتــي الســحر والمغـرب، وبـين البشـير والنـذير، ليعبـر عـن لتنـاقض القـائم بـين مرحلتـي الشـباب والشيخوخة، فقال:

بـــأيِّ دواءٍ أم بـــأيِّ طبيـــب		يُـداوي عِـذارٌ مـن بيـاض مشـيب
بياضُ كما لاحت كواكبُ سُحرةٍ		تُريــك طُلوعــاً مُؤذِنــاً بغـــروبِ
بَشـيراً نَـذِيراً لاحَ كـالفجرِ صـادقاً		علـى كـاذبِ حُلـو اللسان خَلـوبِ(١)

---

(١) الجوالات: ١٤٥ ؛ الإحاطة: ٣/ ٢٣٦.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، (ت٤٠٣هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: ١١٨/١.

(٣) نفح الطيب: ٥٣١/٤ ؛ النبوغ المغربي: ٢٥/٢.

ويطابق مالك بن المرحل بين الطلوع والمغيب، فقال:

بِدايةُ حال أن تدُمْ فلعلَّما		ورُبَّ طلوع كان بعد مَغِيبِ[2]

ونراه قد عدل عن لفظ(الشروق) إلى لفظ (الطلوع) على خلاف الشائع، إما للخروج عن المألوف، أو لأنه أراد تحقق أبسط الآمال المعبر عنها بالطلوع الذي يسبق الشروق.

ويطابق مالك بن المرحل بين البعد والقرب المعنويين في قوله:

بعيدٌ من التوفيق من بات ساهراً		رِجا بعيدٍ لا مخافَ قريبِ[3]

ومما يدلّ على براعة ابن المرحل اللغوية ما قاله على لسان ألثغ ينطق بالسّين ثاء ويقرأ بالرّويّين:

عمرت ربع الهوى بقلب		لقوّة الحبّ غير ناكس ث
لبثت فيه أجر ذيل النّ		حول أحبب به للابس ث
إن متّ شوقا فلي غرام		نباته بالسّقام وادس ث
أمّا حديث الهوى فحقّ		يصرف بلواه كلّ حادس ث
تعبت بالشّوق في حبيب		أنا به ما حييت يائس ث
يختال كالغصن ماس فيه		طرف فأزرى بكلّ مائس ث
دنيا تبدّت لكلّ وأي		فهو لدنياه أيّ حارس ث
يلعب بالعاشقين طرّا		والكلّ راضون وهو عابس ث[4]

فهذه المقطوعة الطريفة تقرأ قافيتها بالسين وهي القراءة المعتادة، وتقرأ

---

(١) النبوغ المغربي: ٣/٨٤٥ . ٨٤٦.

(٢) النبوغ المغربي: ٣/ ٨٤٦.

(٣) النبوغ المغربي: ٣/ ٨٤٦.

(٤) الإحاطة: ٣/ ٢٣٨.

على لسان الألثغ بإبدال السين ثاء، ومع هذا فقد أتى الشاعر بمعانٍ جديدة على لسان الألثغ مما يدلّ على براعة كبيرة وقدرة على التحكم بالقوافي، فمع كل تبدل يكتسب البيت معنى جديداً متوافقاً مع السياق الدلالي العام، بعضها معاني معروفة واضحة، مثل (ماكس ـ ناكث) (عابس وعابث)، أما المائث هو من يعيش عيشاً ليناً رغداً(١)، والمائس هو من يتمايل بتبختر ودلال(٢).

---

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، لمحيي الدين أبي الفضل محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي الزبيدي، (ت١٢٠٥هـ)، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م:مادة (ميث) ٥/ ٣٦٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: مادة (ميس) ١٦/ ٥٢٧.

الخاتمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

بعد هذه الرحلة مع ابن المرحل وشعره، ألخص أهم المحطات اللغوية في شعره بما يأتي:

١. تأثر شعر ابن المرحل تأثراً كبيراً بالأحداث السياسية والاجتماعية التي عاصرها.
٢. لم يشهد شعره تطويعاً للمفردات اللغوية أو العبارات خارج الأطر المألوفة.
٣. انتفع ابن المرحل من أساليب التقديم والتأخير، والاستفهام، والنداء ونحوها، وظهرت قدرته في تطويع هذه الأساليب لخدمة النص والمضمون، وفي أظهار الفضاءات التعبيريه العميقة لهذه الأساليب.
٤. تأثر شعره بالقيم والرموز الدينية فضمنها شعره، وعبر بها عن صلته العميقة بالدين.

تلك كانت شذرات من النتائج التي احتواها البحث، أرجو أن أكون قد أعطيت الموضوع حقه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإحاطة في أخبار غرناطة، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني الملقب بـ (لسان الدين بن الخطيب)، (ت٧٧٦هـ)، دارالكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقري، (ت١٠٤١هـ) طبعت تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربي المتحدة،١٩٧٨ . ١٩٧٩.

٣. إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، (ت٤٠٣ه) تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

٤. أعيان العصر وأعوان النصر، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: الدكتورعلي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبدالقادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، دار الفكر، دمشق . سوريا، ط١، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م.

٥. الأنساب، لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، (ت٥٦٢هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٣٨٢هـ . ١٩٦٢م.

٦. أنوار الربيع في أنواع البديع، لعلي صدر الدين بن معصوم المدني المعروف بعلي خان بن ميرزاأحمد. (ت١١١٩هـ)، تحقيق: شاكر هادي شاكر، مطبعة الغري الحديث، النجف، ١٣٨٨هـ . ١٩٦٨م.

٧. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا . لبنان، ١٩٦٤م.

٨. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحيي الدين أبي الفضل محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي الزبيدي، (ت١٢٠٥هـ)، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

٩. تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، (ت١٩٥٦م)، نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، بلا تاريخ.

١٠. تاريخ الإسلام، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دارالغرب الإسلامي، بيروت، ط١،٢٠٠٣ م.

١١. جماليات الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

١٢. الجوالات من شعر مالك بن المرحل الأندلسي ت٦٩٩هـ، تحقيق ودراسة: د. محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، ط١، ليبيا . ٢٠٠٤م.

١٣. الذخيرة السنية، في تاريخ الدولة المرينية، لعلي بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور، الرباط، ١٣٩٢هـ . ١٩٧٢م.

١٤. ذكريات مشاهير رجال المغرب، عبداللهكنون، عني به: د. محمد ابن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٣٠هـ . ٢٠١٠م.

١٥. ذيل مشتبه النسبة للذهبي، لأبي المعالي محمد بن رافع السلامي، (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٧٦م.

١٦. رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت، لأبي الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المالقي السبتي، (ت٦٩٩هـ)، تحقيق وتقديم: هلال ناجي، مجلة المورد، المجلد الثالث، العدد الرابع، ١٩٧٤م.

١٧. الروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن عبد المنعم الحميري، (ت٩٠٠هـ)، طبع بعناية المستشرق: ليفي بروفنسال، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٨. السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي، (٧٠٣هـ). دار الثقافة، بيروت . بلا تاريخ.

١٩. سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، (ت١٣٤٥هـ)، تحقيق: د. محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م.

٢٠. الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد السعيد دارالرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.

٢١. كتاب الجيم، لأبي أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (ت٢٠٦هـ). تحقيق: عبد الكريم الغرياوي، مراجعة: عبد الحميد حسن، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٢٢. مالك بن المرحل أديب العدوتين، محمد مسعود جبران، المجمع الثقافي، أبو ظبي،٢٠٠٢م.

٢٣. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الموصلي، (ت٦٣٧هـ). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ١٩٩٥م.

٢٤. المحاضرات والمحاورات، لجلال الدين أبي الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت٩١١ه)، دارالغربالإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٤ه.

٢٥. معجم أعلام شعراء المدح النبوي، محمد أحمد درنيقة، تقديم: ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، مصر، ط١، ٢٠٠٣م.

٢٦. معجم البلدان، لأبي عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، (ت٦٢٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٧. النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون. دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٣٩٥ه .١٩٧٥م.

٢٨. النزعة الإنسانية في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، محمد عبدالرحمن محمود، رسالة ماجستير، الجامعةالإسلامية، بغداد، ٢٠٠٦م.

٢٩. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، (ت١٠٤١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دارصادر، بيروت . لبنان، ١٩٩٧م.